



كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia & Islamic Studies
مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
Journal of College of Sharia & Islamic Studies
مجلة علمية محكمة
Academic Refereed Journal

العدد (٣٠) ٢٠١٢ م : VOL . (30) 2012

نظام عقد المعاني في سورة التكاثر

تأليف

الأستاذ الدكتور شحادة احميدي العمري
مدير المعهد العالي للقراءات والدراسات القرآنية
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

و

الدكتور / خالد نواف أحمد الشوحة
الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية
جامعة الجوف - المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

نظام عقد المعاني في سورة التكاثر

أفردنا هذا البحث لدراسة الوحدة الموضوعية في سورة التكاثر، وإبراز ما فيها من ترابط متين وبناء متناسق يشهدان على بلاغة تراكيبها وفصاحة ألفاظها وإعجاز نظمها، وقد ضمنا هذه الدراسة أضواءً من الفوائد الجلية والمعاني النفيسة التي برقت بنورها آيات هذه السورة.

وتكمن أهمية البحث في أن الوحدة الموضوعية تمثل جانباً من جوانب إعجاز القرآن الكريم؛ ولذلك كان من أهداف هذا البحث إبراز التناسق والتناسب بين آيات سورة التكاثر؛ لإثبات إعجاز القرآن الكريم، وأنه وحي من الله تبارك وتعالى، وبيان دور البلاغة والبيان في خدمة هذه القضية، التي عليها مدار النبوة وإثبات الملة.

وقد تألف هذا البحث من مقدمة وستة مباحث وخاتمة. عرضنا في المبحث الأول لمقدمة السورة وهي حال البشر، وفي الثاني لحقيقة الموت، وفي الثالث تحدثنا عن صدق الأنبياء، وبيننا في الرابع مآل الناس في الآخرة، ثم عرضنا في الخامس لسؤال الله تعالى عن النعيم، وذكرنا في المبحث السادس الأساليب اللغوية المستعملة في سورة التكاثر. ثم ذكرنا في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة. وقد سلطنا في ذلك منهج الاستقراء والتحليل والنقد والمقارنة، بما يدعى عند بعض الكاتبيين بالمنهج الوصفي، والله تعالى نسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، والله ولي التوفيق.

'The System of Meanings in Surah Altakathur'

This Research tackles the thematic unity in surah Altakathur. It calls attention to the solid connection and consistent construction in the surah which shows the eloquence of its structures, words, and miraculous systems. Moreover, this study highlights the venerable benefits and the valuable meanings in this surah.

The importance of the study lies in highlighting the thematic unity as an aspect of the miracles of the Holy Quran. Therefore, this study aims at highlighting the consistency and the appropriateness between the verses of this surah; to prove that the Holy Quran is a miracle and a revelation from Allah, the Almighty, and indicate the role of the rhetoric and eloquence in this issue which proves the prophecy and the Islamic religion.

This study is consisted of an introduction, six chapters, and a conclusion. The first chapter highlights the condition of the human beings. The second one highlights the fact of death. The third one talks about the sincerity of the prophets. The fourth one talks about the fate of people in Hereafter. The fifth one talks about Allah's query about bliss. The sixth chapter highlights the use of the linguistic methods in surah Altakathur. The conclusion mentions the important findings of the study. This study implements the induction, analysis, criticism, and comparison approach, which is called by some writers 'The descriptive approach'. We ask Allah to make this study purely to his holy face. Allah is the source of our Strength.

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فهذا بحث لطيف تفصّيت فيه لطائف المعاني وفرائد المباني الكامنة في سورة التكاثر، هذه السورة المبدوءة بالفعل المهموز (أهاكم). وقد وقع في نفسي أن أنسج على منوال العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - الذي دمج يراعه البارع كتابه الفذ الرائع (النبأ العظيم)، وأتحفنا بما في سورة البقرة - أطول سورة في القرآن الكريم - من نظام عقد المعاني، وأفردها بدراسة موضوعية تعد الأنموذج في باب دراسة الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة. وقال - رحمه الله - في مضامين العنوان الذي اختاره لنفسه: " القرآن في سورة سورة منه: ... ونحن ذاكرون لك الآن أنموذجاً منه لو وضعته نصب عينيك، واحتديته في سائر السور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك، وبالله التوفيق "^(١) وتمنى - رحمه الله - أن يتابعه من يأتي بعده، فحاولت أن أنسج على منواله وأسير على نهجه وأقتفي أثره في أسلوبه، ولكن هيهات هيهات، فأنى للظالع أن يدرك شأو الضليع - كما قال الحريري في مقاماته واصفاً نفسه قياساً على سلفه بديع الزمان الهمداني - ، فيسر الله لنا أن أفرد سورة التكاثر بهذه الدراسة؛ لإبراز الفوائد من الفرائد، وإظهار المعاني من القوالب؛ وليدرك القارئ ما في هذه السورة من العلائق النفيسة

^(١) محمد دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٨٥م، ص١٤٢، ١٦٣. ويشار إليه (دراز، النبأ العظيم).

والوشائج المتينة، وأن بعضها أخذ بحجز بعض، وأنها تشكل وحدة متكاملة في نسق رائع ونظام بديع.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في أنه يعالج قضية من أهم القضايا في الدراسات القرآنية، ألا وهي الإعجاز القرآني؛ فإن إثبات الترابط والتناسق بين آيات الكتاب الكريم عامة، وبين الآيات في السورة الواحدة خاصة، دليل على أن المصدر الوحيد لهذا الوحي هو الله سبحانه وتعالى. ومن هنا جاء اهتمام العلماء قديماً وحديثاً بالتفسير الموضوعي بأنواعه المختلفة.

أهداف البحث :

- إبراز الوحدة الموضوعية في سورة التكاثر.
- إظهار جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم.
- إخراج دراسة تطبيقية على قطعة من القرآن الكريم؛ للرد على أولئك الذين يشككون في تآلف أجزاء القرآن الكريم، وتناظم آياته.
- إبراز دور علوم البلاغة والبيان والمعاني في خدمة قضية الإعجاز القرآني.

منهجية البحث:

عمل الباحثان على استقراء أقوال العلماء والمفسرين في قضايا السورة التي تخدم وحدتها الموضوعية، ثم النظر في هذه الأقوال، وموازنتها، ومقارنتها، وترجيح ما كان صواباً منها، مستعينين في ذلك بما يخدم موضوع الدراسة من

أدب ولغة وبلاغة، وعليه نكون قد استخدمنا المنهج الوصفي، المبني على الاستقراء والتحليل ثم المقارنة والنقد والترجيح، والتركيب في بعض الأحيان.

الدراسات السابقة:

من المعلوم لدى الباحثين في علم التفسير أن الكتابة في التفسير الموضوعي قد اعتمدت على تقسيم أنواع هذا العلم، وعلى الصور التي أجازها الباحثون في هذا العلم. وإنما لم نجد من أفرد سورة التكاثر بدراسة موضوعية على النحو الذي قمنا به، على أننا اعتمدنا اعتماداً كبيراً على ما هو مبثوث في كتب التفسير وكتب التناسب القرآني، واقتفينا أثر العلامة الكبير محمد عبد دراز في الطريقة التي اتبعها في بيان الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، والتي ضمنها كتابه "النبأ العظيم".

محتويات البحث:

يتألف هذا البحث من مقدمة وستة مباحث وخاتمة، عرضنا في المقدمة لأهمية البحث، وأهدافه، ومنهجية الباحثين، والدراسات السابقة، ومحتويات البحث.

أما المباحث فكان الكلام في الأول منها على مقدمة السورة وهي حال البشر، وفي الثاني على حقيقة الموت، وفي الثالث على صدق الأنبياء، وفي الرابع على مآل الناس في الآخرة، وفي الخامس على خاتمة السورة وهي السؤال عن النعيم، وعرضنا في المبحث السادس للأساليب اللغوية المستعملة في سورة التكاثر. ثم ذكرنا في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وبعد فهذا جهد المقل نقدمه، سائلين المولى - جل وعلا - أن يجعله خالصاً
لوجهه الكريم، وما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن
أنفسنا، والله الهادي إلى سواء السبيل.



المبحث الأول

مقدمة السورة : حال البشر

تفتتح سورة التكاثر موضوعها بمقطع قصير قليل الكلمات والحروف، يبين حالاً من الأحوال التي لا تكاد تخرج عنها البشرية في جميع أعصرها وأقطارها. ويتألف هذا المقطع من آية واحدة لا يتجاوز عدد حروفها بضعة عشر حرفاً، هي قوله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ النَّكَّآثِرُ﴾ ، جمعت في مضامينها درراً من المعاني النفيسة والمواعظ البليغة التي تقنع العقول وتوقظ الهمم ، ومن ذلك:

١- استعمال الجملة الخبرية، وهو رأي جمهور المفسرين، خلافاً لما ذكر من احتمال كون الاستفهام بمعنى التوبيخ والتقريع^(١). وقد بنى قوله هذا على قراءة ابن عباس بالمد^(٢). والظاهر أن رأي الجمهور أرجح؛ لموافقته للقراءة الصحيحة، ولعدم خلو قراءة الإخبار من معنى التوبيخ والتقريع،

^(١) محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م)، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ط١، ج٣٢، ص٧٣، ويشار إليه (الرازي، مفاتيح الغيب).

^(٢) محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ط١، ج٤، ص٧٩٨، ويشار إليه (الزمخشري، الكشاف).

- مع إفادتها وقوع الحدث، ولذا قال ابن عطية: " وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ وتحسر"^(١).
- ٢- إيثار لفظ (أَلْهَاكُمْ) دون (أشغلكم)؛ لأن اللهو يطلق على الشغل بغير المُجدي، وهذا أخص من لفظ الشغل الذي يدل على الشغل بالمهم وبغير المهم^(٢).
- ٣- ورود المفعول (الضمير المتصل) بصيغة الجمع، والحكمة من ذلك - والله أعلم - الإشارة إلى شمول الآية عموم الملل وعموم الأفراد. وليس صحيحاً إخراج المسلمين من هذا الخطاب^(٣)، فهم المعنيون بادئ بدء بالأحكام الشرعية.
- ٤- ورود فعل الإلهاء بصيغة الخطاب، وذلك أن الناس قد بلغ بهم الإلهاء إلى مرحلة ظاهرة بيّنة لا يستقيم في التحذير منها التورية أو التعريض، فكان لا بد من مواجهتهم بذنبهم العظيم الذي أنساهم خالقهم، فكفرَ به قومٌ وعصاه آخرون.

^(١) ابن عطية : المحرر الوجيز (٤٨٨/٥)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، (ط١)، ج٥، ص٤٨٨، ويشار إليه (ابن عطية، المحرر الوجيز).

^(٢) قال ابن عاشور: " اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمر مهم ". انظر: محمد الطاهر عاشور (ت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، تحرير المعنى السديد وتوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد ، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ج٣٠، ص٥١٩، ويشار إليه (ابن عاشور، التحرير والتنوير).

^(٣) كما سألني . بإذن الله . عند قوله تعالى: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم).

٥- التعبير بالمصدر (التَكَاتُرُ) الدال على استغراق صنوف الملهيات التي ألهمت الناس، وليس هو المال فقط، ولا العدد فقط، ولا يختص بالمال والعدد - كما أشار إليه الطبري^(١).

فيدخل فيه التكاثر بالعدد والمال والجاه والعلم والأولاد والزوجات وهكذا. ولعل من حدد الملهي بالأموال والأولاد اعتمد على قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [٢٠: الحديد]. قلت: أما أن تكون الأموال والأولاد من المتكاثر به فهذا صحيح وتحتمله الآية، وأما أن يكون هو كل المتكاثر به فهذا مما يباه السياق ويقصر عن عموم اللفظ.

وهنا قضية يجمل الإلماح إليها، وهي أنه إذا جاءت كلمة أو جملة في آية ثم جاء ما يفسرها في آية أخرى، فليس بالضرورة أن تكون قد أتت على كل تفصيلاتها وأجزائها، فإنه من الممكن أن تكون قد فسرتها بذكر بعض أجزائها أو تفصيلاتها، وقريب منه التفسير بالمثل^(٢). ومن فوائد معرفة هذا إزالة كثير من الاختلاف الوارد عن المفسرين، وتصنيفه في باب اختلاف التنوع. وخير مثال

(١) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ١، ج ٢٤، ص ٥٨٠، ويشار إليه (الطبري، جامع البيان).

(٢) ومن أمثلة ذلك تفسير الصراط المستقيم في سورة الفاتحة، بالقرآن أو الإسلام، أو اتباع السنة ونحو ذلك، انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٤٦٩.

نظام عقد المعاني في سورة التكاثر : أ.د. شحادة احميدي العمري -و- د.خالد نواف أحمد الشوحة

هذه الآية؛ فإنها ذكرت نوعين من المتكاثر به، ولم تقصد حصر الأنواع، فليس فيها من اللفظ ما يساعد على الحصر.

وأما ما قيل به مما هو أعم من ذلك من أن التكاثر فيما هو مذموم، فإنه مع وجاهته إلا أنه غير صحيح، والذي أراه أن التكاثر ينقسم ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان في أصله مذموماً؛ كالذي يتخذ الحرام سبباً لتكثير ماله.

الثاني: ما كان في أصله مباحاً، إلا أنه يلهي عن ذكر الله تعالى، إذا لم ينتبه له المرء، ودليله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الآية ٩: المنافقون].

الثالث: ما كان في أصله مباحاً، ولا يلهي عن ذكر الله تعالى، وذلك كقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [٤٦: الكهف]، وقول النبي صلی الله علیه وسلم: "حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة" ^(١)،

(١) أخرجه أحمد في المسند، (٣٠٥/١٩) برقم (١٢٢٩٣)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م، ط٢. وأخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب حب النساء برقم (٨٨٨٧)، تحقيق: عبد الغفار البنداري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١ هـ/١٩٩١ م، ط١، ج٥، ص٢٨٠. وقال ابن حجر: "وإسناده حسن". انظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، التلخيص الحبير، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ / ١٩٨٩ م، ط١، ج٣، ص٢٥٤.

وقوله: " تزوجوا الولود الودود، فإني مكاتر بكم الأمم" ^(١)، ففي هذا الحديث حث على التكاتر في الأولاد، وحث على الزواج، فالقسمان الأول والثاني مذمومان دون شك، أما الثالث فهو غير مذموم، مع صحة كونه داخلاً فيما أخبر به النظم الكريم.

والذي أستشعره من الآية أن النهي فيها غير متعلق بخصوص عدد أو مال أو ولد أو نحو ذلك، بل بما ينتج عن التكاتر ويؤدي إليه من الإلهاة ونسيان الشرائع. يقول ابن القيم: "لأن المذموم هو نفس التكاتر بالشيء لا المتكاتر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به. وأما إرادة الإطلاق، وهو كل ما كاتر به العبد غيره من أسباب الدنيا من جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاتر الملهي عن الله والدار الآخرة" ^(٢).

٦- طوى ذكر الملهي عنه، وقد ذكر ابن عاشور أنه القرآن والتدبر فيه ^(٣)، قلت: ما ذكره صحيح، والأصح منه أن نقول بعموم الملهي عنه، وأنه شامل لكل ما يتقرب فيه إليه تعالى، ومنه ما ذكره ابن عاشور وغيره من المفسرين،

^(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، في کتاب النکاح، برقم (٢٦٨٥)، وقال: "هذا صحيح الإسناد"، وقال الذهبي: "صحيح".

^(٢) محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بـ (ابن القيم)، (ت ٧٥١هـ) عدة الصابرين، تحقيق: زكريا علي يوسف، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٥١٩ ويشار إليه (ابن القيم، عدة الصابرين).

^(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥١٩.

وهذه هي نكتة طوي ذكر المُلَهَى عنه حتى تذهب النفس في تقديره كل مذهب. ونكتة أخرى ما ذكره البقاعي حيث قال: " لتعظيمه، والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه"^(١).

فانظر - رحمك الله - إلى هذه الآية العظيمة ، ثم انظر إلى أسلوب الحذف الذي سماه ابن جني " شجاعة العربية "^(٢) - كيف يؤدي دروساً كبيرة ورسائل بليغة في موعظة اللاهين وتنبههم إلى غفلتهم عن شرائع الله ودينه، فحذف المُلَهَى عنه والمُلَهَى به. ولهذا قال شيخ الصناعتين عبد القاهر الجرجاني: « ما من اسم حُذِفَ في الحالة التي يَنْبَغِي أَنْ يُحَدَفَ فيها إلا وَحَدَفُهُ أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ »^(٣).

ولعل في هذا الحذف درساً يتناسب مع واقع الإنسان وحقيقة أمره، فيسأل نفسه: هل لهوت حقاً؟ وما الذي ألهاني؟ وعن أي شيء لهوت؟ فيبقى في محاسبة لنفسه ومراجعة ومُسائلة، حتى يعرف ذنبه، ويتيقن خطأه، فيكون ذلك سبيلاً إلى أن يؤوب إلى الله ويرجع عن لهوه وغفلته.

(١) ابراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج٨، ص٥١٦ ويشار إليه (البقاعي، نظم الدرر).

(٢) عثمان ابن جني : الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت، دار عالم الكتب، ج٢، ص٣٦٠ .

(٣) انظر: محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ج٣، ص ١٠٥ .

٧- ورود الخطاب بلفظ الماضي (أَلَهَاكُمْ)، وهذا للدلالة على أن الأمر تحقق وحصل كما ذكر ذلك ابن عاشور في "التحرير" (١).

٨- أسند اللهو هنا إلى الإنسان عموماً دون أن يخصه بجزء من أجزائه، كما هو في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [٣: الأنبياء]. والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن الكلام في سورة الأنبياء على إنزال الكتب للناس وموقفهم منها، حيث قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [٢-٣: الأنبياء] ، فقوله تعالى: (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ) هي حال ثانية للكفار عند استماعهم للذكر، ومعلوم أن مكان استماع الذكر وتدبره وفهمه ووعيه هو القلب، ولذا ناسب تسمية المكان الذي صدر منه فعل اللهو.

أما في " التكاثر " فإن الكلام جاء لوصف حال الناس عموماً والنعي عليهم بذلك ، فذكر ما يراه الناظر لحالهم لأول وهلة، وهو اللهو الشامل للقلوب والأسماع والجوارح.



(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥١٩ .

المبحث الثاني

حقيقة الموت

إن شأن أي متكلم يشير في كلامه إلى موضوعات متنوعة أن يكون كلامه مظنة التفكك والإسهاب والتفرق والإخلال والتفاوت.

وإننا لنعترف أن كثيراً من الكتاب والخطباء والبلغاء قد برعوا في إبراز معان عظيمة ، وأتوا بالألفاظ جزلة فصيحة ، لكنهم لما أرادوا نظم مقاصدهم وربط موضوعاتهم بعضها ببعض، أعياهم طبعهم البشري وأعوزهم نقص فصاحتهم أو بلاغتهم أو كليهما، وانظر كم عاب بعضهم على بعضهم الآخر سوء انتقاله من موضوع إلى آخر، أو من بيت إلى بيت، أو من فقرة إلى أخرى.

ولكن شيئاً من هذا في القرآن الكريم لم يكن، فهو من أوله إلى منتهاه " لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، ولا أشد تلاوياً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني؛ فلا خفاء على ذي عقل أنها تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير؟ " (١).

(١) الخطابي: ثلاث رسائل في الإعجاز (ص ٢٤).

هذا هو أسلوب القرآن الكريم ونهجه، حيث جمع بين فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وجمال النظم وبراعته، في بناء محكم متين لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً.

وهاهو القرآن بدفتيه بين يديك، قلب صفحاته كيفما تريد، وافحص كلماته وجمله وآياته كما تشاء، ثم دقق فيه نظرك وارجع إليه بصرك كرة أو كرتين، لا، ولن تجد فيه إلا ما يبهر القلوب ويأخذ بتلابيب العقول، وخذ مثلاً هذه الآية الثانية من سورة التكاثر، كيف انزلت بك - دون أن تشعر - إلى معنى عظيم ومقصد خطير، ذلكم هو الموت، دون أن تحس بالبون الشاسع بين معنى اللهو بالأولاد والأموال والزوجات ونحو ذلك، وبين معنى هادم اللذات المنسي لكل زينة والمبعد عن كل شهوة. ادعيت هذا، وإليك طرفاً من الأدلة على دعواي:

أولاً : بدأت الآية الثانية ب (حتى)، ولها في اللغة معان كثيرة يحددها السياق، ولكنها هنا تدل على الغاية، والمعنى: أنهم لا يزالون ملتهمين بالتكاثر حتى يزوروا المقابر.

وفي هذا درس لكل من ألهاه التكاثر، وانشغل عن المهمة التي خلقه الله تعالى لها، أن غايته الموت، وإذا كان ذلك كذلك، فإنه لا بد أن ينتبه إلى نفسه، ويحذر مما في الدنيا من لذات ومتع فانية. وانظر إلى هذا التجانس العجيب بين مُلهيَيْن مُتضادَيْن: التكاثر، الملهي عن عبادة الله والتقرب إليه. والموت، الملهي عن كل تكاثر ألهي عن طاعة الله.

ثانياً: التعبير ب (رُزْتُمْ)، وفيه قضايا أربع :

القضية الأولى : اختلف المفسرون في المقصود من الزيارة في هذه

الآية على أقوال :

القول الأول : أن القبائل كانت تتكاثر وتتفاخر فيما بينها، فتقول

إحداهما للأخرى : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان بن فلان. فتقول الأخرى كقول الأولى قاصدين الأحياء، ثم إذا انتهوا منهم انطلقوا إلى قبور الأموات فقالوا: فيكم مثل فلان بن فلان، ويشيرون إلى القبور^(١). والمعنى على هذا: " ألهاكم ذلك، وهو مما لا يعينكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وأخرتكم عما يعينكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم " ^(٢).

القول الثاني : أن معنى الزيارة مجازي، والمقصود منه التفاخر

بالأحياء ثم الأموات دون زيارة حقيقية للقبور، والمعنى على هذا: " أنكم تكاثرتُم بالأحياء حتى إذا استوعبتُم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأموات، عبّر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم " ^(٣).

القول الثالث : أن المقصود بالزيارة الموت، قال الزمخشري: " أراد:

ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن مُتّم وقبرتم، منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت، لا همّ لكم غيرها، عما

^(١) انظر الروايات التي وردت في هذا المقام، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ١٩٩٩م، ط٢، ج٨، ص٤٧٢، ويشار إليه (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم).
١١٤٣هـ/١٩٢٠م) : تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ١٤٢٠هـ/

^(٢) الزمخشري ، الكشاف، ج٤، ص٧٩٨ .

^(٣) الزمخشري ، الكشاف (٤/٧٩٨)

هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم. وزيارة القبور: عبارة عن الموت " (١).

قلت : والراجح هو الثالث ، ويقويه ما يأتي:

١ - أنه استعمال شائع معروف في العربية واستشهدوا له بقول جرير:

زار القبور أبو مالك . فأصبح أهون زوارها (٢)

٢ - أن لفظ الزيارة الوارد في سبب النزول - إن صح - لا يُحتم علينا جعله تفسيراً للفظ الزيارة الوارد في الآية، فهذا شيء ومراد الآية شيء آخر.

٣ - دلالة الواقع المطابقة لمعنى غائبة (حتى)، فلو كان المقصود مجرد زيارتهم للمقابر لكان مخالفاً للواقع الذي يشهد بأن الإهاء التكاثر لهم استمر بعد ذهابهم للقبور والتفاخر بموتاهم، أما لو كان المراد الزيارة الحقيقية للزم من ذلك أن الإلهاء وصل إلى زمان زيارتهم القبور، ثم توقف بعد ذلك بدلالة (حتى)، وهذا ليس بصحيح؛ فإنهم لم يزوالوا لاهين بالتكاثر ولم يتوقفوا لا قبل الزيارة ولا بعدها، وهذا ما يتفق مع مراد السورة ومقصودها.

(١) الزمخشري ، الكشاف (٧٩٨/٤).

(٢) البيت: قاله جرير في الأخطل عندما مات، وهو من المنقارب التام، انظر: ديوان جرير (٣٠٠/١) وفي رواية أخرى: (فكان كألم زوارها).

القضية الثانية: عرفنا فيما سبق أن معنى زيارة المقابر: الموت،

فلماذا أثر القرآن هذا اللفظ؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: قال البقاعي - رحمه الله - : " ولما كانوا ينكرون البعث، ويعتقدون دوام الإقامة في القبور، عبر بالزيارة إشارة إلى أن البعث لا بد منه ولا مرية فيه، وأن اللبث في البرزخ - وإن طال - فإنما هو كلبث الزائر عند مزوره في جنب الإقامة بعد البعث في دار النعيم أو غار الجحيم، وأن الإقامة فيه محبوبة؛ للعلم بما بعده من الأهوال والشدائد والأوجال" (١).

وقال ابن القيم: " وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها. ودار القرار هي الجنة أو النار" (٢).

وقال ابن كثير: " ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حتى زرتهم المقابر﴾ ، فقال: بُعثَ القوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره " (٣).

(١) البقاعي ، نظم الدرر، ج٨، ص٥١٧ .

(٢) ابن القيم ، عدة الصابرين، ص١٥٣ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص٤٧٤ .

وقال أبو حيان: " وسمع بعض الأعراب «حتى زرتم» ، فقال : بعث القوم للقيامة وربّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم. وعن عمر بن عبد العزيز نحو من قول الأعرابي" (١).

قلت : من هذه النقول يتبين لنا أن المفسرين ذكروا حكماً عديدة للتعبير عن الموت بزيارة المقابر، ومنها: دلالة اللفظ على حقيقة البعث وأنه لا شك فيه أولاً. وثانياً: قصر المسافة ، وثالثاً: أنها محبوبة بالنسبة لما بعدها، كحال الزائر.

وإن تعجب فعجب قول بنت الشاطي: " وليس بعجيب أن يفوت هذا السر البياني مفسرين كان جهدهم أن يجمعوا كل ما يمكن أن تحتمله الدلالات المعجمية لزيارة المقابر، وشتى المرويات في تأويلها. حتى الذين فسروا الزيارة بالموت هنا، لم يلفتوا إلى سره البياني، وهو ما لم يفت أعرابياً سمع الآية فقال: " بعث القوم للقيامة وربّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم" (٢).

قلت : لعمر الحق إن هذا تجنُّ على المفسرين ما بعده تجن، ولا أدري كيف راق لها- وهي تُعد نفسها من المجددين في التفسير- أن تصف المفسرين بالقصور أو التقصير عن استخراج علة التعبير بالزيارة عن الموت، ولا أدري ما الذي

(١) محمد يوسف الأندلسي أبو حيان (ت ٥٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ط١، ج٨، ص٥٥٥، ويشار إليه (أبو حيان، البحر المحيط).

(٢) عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطي" ، التفسير البياني للقرآن الكريم، مصر، دار المعارف، ط٣، ج١، ص٢٠٦، ٢٠٧، ويشار إليه (عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني).

جعلها تتجاهل نقولاً كثيرة ذكرها المفسرون حول هذه المسألة، بل إنهم ذكروا أكثر مما ذكرته هي كما هو عند البقاعي حيث ذكر ثلاث علل، على حين اقتصررت هي على علة واحدة عرض لها جمهور المفسرين، ولقد تتبعنا كثيراً من المسائل التي ادعت فيها حيازة قصب السبق في فهمها أو طرحها أو ترجيحها، فوجدتها موجودة في كتب المفسرين أو المشتغلين بعلوم القرآن الكريم^(١)، وهذا لا يجوز في مقام البحث العلمي، بل إنها أنكرت على أبي حيان قائلة: " والعجيب أن أبا حيان لم تستوفه هذه اللحة الدقيقة من كلمة قالها أعرابي يجد حس لغته فطرةً وسليقةً، بل مرَّ أبو حيان بها سريعاً كأن لم يعنه منها شيء " (٢).

قلت: إن هذا اتهام باطل لا يليق أن يرمى به أبو حيان - وهو من هو في علوم التفسير والبلاغة القرآنية - هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإنه قد عُلم من طريقة المفسرين أنهم ما كانوا يسهبون في شرح كل قضية، بل كانوا يكتفون بعرضها، ويقصدون إلى الإيجاز حتى في مطولاتهم، وهذا ما فعله أبو حيان وغيره من المفسرين في هذا الوطن، وما أظن بنت الشاطئ أخذت الأثر إلا من كتبهم.

القضية الثالثة : التعبير بالماضي (زُرْتُمْ). قال ابن عاشور: " زرتم:

تعبير بالماضي لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لأنه محقق وقوعه " (٣). وهذا

(١) ومن ذلك رأيها في جواب ج ك ك ن س ج ، وسيأتيك بيانه بإذن الله.

(٢) عائشة عبد الرحمن ، التفسير البياني، ج ١، ص ٢٠٧ .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٠ .

إيقاظ للناس وتنبية لهم على الموت الذي تدل أفعالهم على أنهم نسوه. وبهذا يكون في لفظ (زُرْتُمْ) دلالة على وصف الموت من وجهين: أولهما: أنه عبر بلفظ الزيارة. وثانيهما: التعبير بزمن الماضي المفيد تحقق الوقوع.

القضية الرابعة : خطاب الجمع في (زُرْتُمْ) ؛ وهذا لفائدتين:

الأولى: مقابلة الآية الأولى (أَلْهَاكُمُ)، بالجمع والخطاب دون التفات، لسريان الهدف نفسه في التعبيرين: (أَلْهَاكُمُ) و(زُرْتُمْ)، وهو المواجهة دون التعريض أو التورية.

الثانية: التأكيد على عموم إهلاك الله للناس، وأن كل شيء هالك إلا وجهه الكريم - جل وجهه وتعالى جده -

ثالثاً : التعبير بالمقابر دون (القبور) ، وفيه نوعان من الملاءمة:

الأولى: صوتية لتوافق نسق الإيقاع وانسجام النغم مع (التكاثر).

والثانية: معنوية ، " فالمقابر: جمع مقبرة، وهي مجتمع القبور، واستعمالها هنا يقتضيه معنوياً؛ أنه اللفظ الملائم للتكاثر، الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فان، هناك مجتمع القبور، ومحتشد الرمم، ومسكن الموتى، على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم،

نظام عقد المعاني في سورة التكاثر : أ.د. شحادة احميدي العمري -و- د.خالد نواف أحمد الشوحة

وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور".^(١) قال في مختار الصحاح: " القبر واحد القبور، و المقبرة بفتح الباء وضمها: واحدة المقابر " ^(٢).



(١) انظر: عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني، ج١، ص ٢٠٨، ٢٠٧ .
(٢) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٥٦٠ .

المبحث الثالث

صدق الأنبياء

لقد كان حديث المقدمة والمقصد الأول عن إلهاء التكاثر للناس وعن الموت الذي هو مآلهم جميعاً، فجاء الكلام على نسق يتوافق مع بديهية هاتين القضيتين، لأنه يقرر حقائق واضحة للعيان ظاهرة في الوجود لا ينكرها مسلم ولا كافر. ولكن انظر كيف اختلف النسق القرآني، وانتقل أسلوبه من الإخبار المجرد إلى أسلوب التهديد والوعيد والتأكيد عندما اختلف الموضوع.

فإنه إذا كان يقرر في المقدمة والمقصد الأول حقيقتين مشاهدتين؛ فإنه الآن أمام قضية اختلفت فيها عقول الناس وتعددت مذاهبهم، من مصدق أو مكذب منكر إما كلياً وإما جزئياً، حتى حصل الخلف في الفكر والعقل مما أدى إلى تناكر القلوب وتناظر الألسنة وتحارب القوى والجماعات، كلٌّ يحارب من أجل عقيدته وفكره، تلکم هي قضية النبوات، بما تحمله من مقتضيات الغيب ونقل الوحي وإيصاله من الخالق إلى المخلوق من أوامر ونواهٍ تُسير الحياة وتوضح السبيل القويم.

وقضية كُبارة هذا شأنها، لا يمكن أن تقرر إلا على نسق خاص، يحمل في طيات حروفه معاني عظيمة جليلة تتناسق ألفاظها مع معانيها، وقد أخذت من العقد الثمين ثلاث جمانات، هي قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾. وإليك نزرأ قليلاً من بريق هاتيك الحلل:

أولاً : بدأ التعبير في الآية الأولى بلفظ (كلا)، وهي أم الروادع وسيدة الزواجر والصوادع كما قرر اللغويون، والذي أراه أن الردع والزجر في الآية يتوجه إلى أمرين:

أولهما : ردع الناس عن إلهاء التكاثر لهم.

ثانيهما: ردعهم عن غفلتهم عن الموت، فإنهم لو لم يغفلوا عن الموت لم يلتفتوا عن أوامر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ثانياً : التعبير بـ (سوف)، وفيه أمران:

الأول : أنها أفادت تحقق حصول العلم من قبل المُلتهين^(١).

الثاني : التعبير بـ (سوف) على حين عبر بـ (السين) في قوله تعالى: ﴿كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون﴾ [٤-٥: النبأ]. وقد ذكروا حكماً عديدة لفرق التعبير بين آية النبأ وآية التكاثر، وبنوا هذه الحكم على ما اشتهر عند النحاة من أن مدة الاستقبال مع (السين) أضيق منها مع (سوف)، والصحيح أن الخلاف في صحة هذا الكلام موجود، بل إن المحققين منهم على خلاف المشهور، قال ابن هشام: "السين المفردة: حرف يختص بالمضارع، ويخلصه للاستقبال، وينزل منه منزلة الجزء؛ ولهذا لم يعمل فيه مع اختصاصه به. وليس مقتطعا من سوف خلافاً للكوفيين. ولا مدة الاستقبال معه أضيق منها مع سوف خلافاً للبصريين...". ثم قال: " ... سوف: مرادفة للسين، أو أوسع منها على الخلاف، وكان القائل بذلك نظر إلى أن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى، وليس بمطرد " ^(٢).

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢١ .

(٢) عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د.

مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٥م، ص ١٨٤.١٨٥.

وقال السيوطي: " سوف كالسين وأوسع زماناً منها عند البصريين، لأن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى، ومرادفة لها عند غيرهم " (١).

ثالثاً : التعبير بالفعل (تعلمون)، وفيه ما يأتي:

أ - إيثاره على (تعرفون)، وذلك للدلالة على أن معرفته ستكون على وجه التأكيد واليقين، فإن العلم أكد في التثبت والتحقق من مجرد المعرفة، وهذا ما يتناسق مع موضوع صدق الأنبياء. وفيه دعوة الناس إلى تصديق الرسل تصديقاً تاماً لا شبهة فيه ولا ريب.

ب - استعمال الفعل المضارع (تعلمون)، وهو يفيد التجدد، والمراد أن علم الناس سيتجدد كلما رأوا ما أخبرهم به أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام -، فتجدد العلم تابع لتجدد المعلوم وتنوعه. قال البقاعي: " تعلمون: أي يتجدد لكم العلم بوعده لا خُلف فيه بما أنتم عليه من الخطأ عند معاينة ما يكشفه الموت ويجر حزنه الفوت من عاقبة ذلك ووباله " (٢).

ج - حذف مفعول (تعلمون)، وقد اختلف المفسرون فيه على وجهتين:

الأولى: تعيينه ، وممن عينه الطبري حيث قال: " سوف تعلمون إذا زرت المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غِبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن

(١) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١)، الإتيان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٦٢.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥١٨.

طاعة الله ربكم" (١). والزمخشري حيث قال: " سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله" (٢).

الثانية: ترك تعيينه حتى تذهب النفس فيه كل مذهب، وهو الراجح هنا؛ لأن الله - عز وجل - ترك تعيينه، وهذا مقصد جليل من مقاصد القرآن العظيمة في ترك تعيين المبهم أو تفسير المجمل أو تقييد المطلق ونحو ذلك.

ولا أقصد بهذا الترجيح تخطئة الذين عينوه؛ لأنهم - في ظني - لم يقصدوا بتعيينه قصر الصواب على ما عينوه، وما ذكروه إنما هو من قبيل المثال لا الاستقصاء ، وخلافهم هذا هو اختلاف تنوع لا تضاد.

تنبيه :

الأفعال التي حذف مفعولاتها في القرآن الكريم نوعان (٣):

النوع الأول: ما حذف مفعوله لإرادة الاختصار ، أو لتذهب النفس في تقديره كل مذهب ، أو لكونه معلوماً معروفاً، وهذا يحقق فوائد بلاغية عظيمة، بحسب السباق والسياق واللاحق.

النوع الثاني: ما حذف مفعوله لجواز استقامة المعنى باللزم والتعدي معاً أو على وجه التخيير. ومثال ذلك: حذف مفعول تعلمون في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٢٤، ص ٥٨٠ .

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٩٨ .

(٣) انظر أمثلة هذه الأنواع عند: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٣٧، والشنقيطي، أضواء البيان، ج ٤، ص ١٥٢.

يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾
الزمر].

فالفعل (يعلمون) هنا يصح أن يكون من قبيل المتعدي بمعنى أنه لا يستوي الذين يعلمون علم الفقه أو العقيدة أو الشريعة - مثلاً - مع الذين لا يعلمون هذه العلوم. كما يصح أن يكون مراد الآية نفي استواء الذين تحقق فيهم صفة العلم مع الذين لم تتحقق فيهم هذه الصفة وهم الجهلاء، فيكون النظر هنا إلى مجرد تحقق الصفة وانتفاء نظيرها، أو العكس.

وفعل (تعلمون) الذي هو في سورتنا هو من قبيل الأول لا الثاني، بمعنى أنه حذف مفعوله لا من أجل صلاحه للتعدي وللزوم معاً، ولكن من أجل أن تذهب النفس في تحديد مفعوله كل مذهب، ولهذا وجدنا علماءنا الأجلاء يقدرون له مفعولات متنوعة.

والذي يظهر في مفعول (تعلمون) هنا أنه مجمل ما أخبرهم به أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام -، دون تحديد لحادثة معينة أو قضية مقيدة من أمور الآخرة.

رابعاً: استعمال لفظ (ثم)، وقد اختلف المفسرون فيها على النحو الآتي:

١ - قال الزمخشري: " و(ثم) دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: (أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل هذا)"^(١).

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٩٨.

٢ - وقال ابن القيم: " توسط (ثم) بين العَلَمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً " (١).

٣- وقال ابن عاشور: "وأكد الزجر والوعيد بقوله: ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ فعطف عطفاً لفظياً بحرف التراخي أيضاً؛ للإشارة إلى تراخي رتبة هذا الزجر والوعيد عن رتبة الزجر والوعيد الذي قبله، فهذا زجر ووعيد مماثل للأول، لكن عطفه بحرف (ثم) اقتضى كونه أقوى من الأول لأنه أفاد تحقيق الأول وتهويله. فجملة ﴿كلا سوف تعلمون﴾ تؤكد لفظي ﴿كلا سوف تعلمون﴾ (٢). وهذا هو عين ما ذهب إليه البقاعي حيث قال: " أي: ارتدعوا ارتداعاً أكبر من ذلك" (٣).

وبنظرة عجلى إلى هذه الأقوال يظهر لنا ما يأتي :

- ١- القولان الأول والثالث اشتركا في كون الجملة الثانية تأكيداً للأولى.
- ٢- أما القولان الثاني والثالث فقد اشتركا في كون (ثم) تفيد التراخي الرتبي، واقتربا في كونها أفادت تأسيساً. على حين يرى ابن السبكي أن مجرد قولهم: أبلغ، يفيد التأسيس، قال في عروس الأفراح: " وفي كلاء الزمخشري ما يومئ إلى أن الثانية تأسيس لا تأكيد؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنذار" (٤). وبهذا

(١) ابن القيم، التفسير القيم، ج ١، ص ١٥٧ .

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢١ .

(٣) البقاعي ، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥١٨ .

(٤) أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج ٢، ص ٥٢ ، ويشار إليه (ابن السبكي ، عروس الأفراح).

يكون التأسيس حاصلاً من القولين: إما باختلاف مفعولي (تعلمون)، وإما باختلاف درجة التهديد.

٣ - وبناءً على هذا الخلاف في تعيين مفعول (تعلمون)، وفي تحديد نوع (ثم)، اختلف العلماء في المقصود من الآية الثانية على النحو الآتي:

الفريق الأول ، قالوا: الجملة الثانية مؤكدة للتي قبلها إما تأكيداً مساوياً - كما صرح به الزمخشري -، وإما تأكيداً أشد من الأول وأقوى - كما أوضحه ابن عاشور -^(١).

الفريق الثاني ، قالوا: " ليس تأكيداً، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والثاني في القبر، واستندوا إلى ما ورد عن ابن عباس من أن (كلا سوف يعلمون) ما ينزل بكم من عذاب القبر، وأن (ثم كلا سوف تعلمون) عند البعث. وبهذا يكون المراد من كل جملة تهديداً بشيء خاص.^(١) وقد نصر هذا القول ابن القيم - رحمه الله - مستنداً على صحته بما يأتي:

- ١- أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.
- ٢- توسط (ثم) بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

^(١) ابن مالك النحوي يرى أن الجملة الثانية تأكيد لفظي للجملة الأولى مع توسط العطف بين الجملتين.

٣- أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول.

٤- أن هذا مطابق لما بعده من قوله تعالى: (لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين) ، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقيد الثانية بعين اليقين. وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها " (٢).

قلت : والذي يظهر هنا أن الآية تحتمل المعنيين كليهما، وليس في اللغة ولا في الشرع ما يمنع كون الجملة الثانية تأكيداً ولا ما يمنع كونها تأسيساً، مع ملاحظة جواز ذكر مفعول لـ (تعلمون) دون أن نقصر الآية عليه لجواز تقدير غيره.

وأما ما ذكره ابن عاشور حيث قال: " وهذا من مستتبعات التراكيب، والتعويل على معونة القرائن بتقدير مفعول خاص لكل من فعلي (تعلمون)، وليس تكرير الجملة بمقتضى ذلك في أصل الكلام " (٣).

قلنا: أنا لا أنكر أن تكرير الجملة لا يقتضي تغيير المفعول في أصل الكلام، لكن لا يوجد ما يمنع جوازه. بل إننا نرى إمكان شمول القول الثاني للأول؛ لأن ترجيح التأسيس في الجملة الثانية لا يمنع إفادة التأكيد، ففعل العلم تكرر، وتنوعت أفراده وأزمنته. فيكون مُفاد التأكيد بتكرار فعل العلم، ويكون مُفاد

(١) انظر: ابن القيم ، عدة الصابرين، ص ١٥٧. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢١ .

(٢) ابن القيم ، عدة الصابرين، ص ١٥٧ .

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢١ .

التأسيس بتنوع مفعولات العلم التي ترك القرآن الكريم تحديدها. وقد قال ابن السبكي في عروس الأفراح: " لم أرد أن الجملة الثانية مؤكدة، بل هي تأسيس، والتأكيد وقع في تكرار التأسيس، وهذا أبلغ من التأكيد؛ فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوّز والعطف يحصل بتكرار الإسناد وفائدته زيادة تقرير لثبوت النسبة أو طلبها، وفائدة التأكيد تقرير الإخبار بالنسبة. ولا أقول بذلك مطلقاً، بل حيث لا إلباس، بأن يكون المخبر به أو المطلوب لا يقبل التكرار، مثل: صُمْتُ أمس وصمت أمس ، أو: صم غداً وصم غداً. فإن توقفت في صحة هذا التركيب فعليك بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

قلنا: وبهذا تلتحم الأقوال، وتظهر براعة القرآن الكريم في نظم هذا المعنى البليغ الكثير في هذا اللفظ الموجز القليل.

خامساً: قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

انتقل الكلام بعد تهديد الله - عز وجل - ووعيده لمن ألهاهم التكاثر أنهم سيعلمون حقيقة ما أخبرهم به أنبياء الله تعالى ورسله الكرام. أقول: انتقل الكلام إلى ذكر سبب من أسباب الانتهاء، لكن على طريقة الاحتباك. قال البقاعي: "ذكر الإلهاء أولاً، وحذف سببه، وهو الجهل؛ لدلالة الثاني عليه، وذكر ثانياً العلم الذي هو الثمرة، وحذف ما يتسبب عنه من عدم العلم الذي هو ضد الأول"^(٢)، فإنه ذكر إلهاء

(١) ابن السبكي ، عروس الأفراح، ج٢، ص٥٢.

(٢) البقاعي ، نظم الدرر، ج٨، ص٥١٩ .

التكاثر للناس ولم يذكر سببه - وهو الجهل - لدلالة الثاني عليه، على حين ذكر هنا السبب (عدم العلم) ولم يذكر ناتجه (عدم الالتهاء).

ويلحظ في الآية ما يأتي:

- أ - ذكر (كلا) للمرة الثالثة؛ لإفادة تأكيد التحذير والردع وتشيديده.
- ب - استعمال (لو)، وهي " حرف يقتضي في الماضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه " ^(١)، أو: " حرف لما كان سيقع لوقوع غيره " ^(٢)، الدالة على أنهم لم يعلموا حقيقة الأمور، مما جعلهم ضحية إلهاء التكاثر.
- ج - الفعل (تعلمون) ، وفيه :

- ١- إيثاره دون (تعرفون)، وقد تقدم نظيره.
- ٢- حذف مفعوله، وقد علل ذلك ابن عاشور بظهور المراد ^(٣).
- ٣ - التعبير بالمضارع وقد ذكر ابن عاشور أنه " مراد به زمن الحال.
- أي : لو علمتم الآن علم اليقين لعلمتم أمراً عظيماً " ^(٤).

وقال الجرجاني : " الاحتباك هو أن يجتمع في الكلام متقابلان و يحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً، أي: علفتها تبناً، وسقيتها ماءً بارداً ". التعريفات، بيروت دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ط١، ص ٢٥ .

(١) ابن هشام، مغني اللبيب، ج١، ص٣٤٣ .

(٢) وهو رأي سيبويه، انظر : عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار التراث، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط٢٠، ج٤، ص٤٧. وهذا على اعتبار أن اللام في (لوقوع) هي للتوقيت لا للتعليل كما أفاده ابن هشام في "المغني"، ج١، ص٣٤٢ .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٥٢١.

قلنا: ويمكن أن يكون المراد زمن الماضي، وعليه تخريج ما قدره المفسرون من قولهم في جواب الشرط: ما ألهاكم، أو ما أشغلكم. وهذا أحد المعاني التي تأتي لها (لو).

وإذا كان ذلك كذلك، فالذي يظهر في معنى المضارعة هنا إرادة تصوير الحدث، وأنه كان ينبغي أن يتجدد لهم العلم كلما عرض لهم نوع من الإلهاء، كما حصل ليوסף - عليه السلام - مما يمنع الوقوع في المحذور.

أما بالنسبة لجواب «لو تعلمون» فقد تحصل لي ثلاثة أقوال :

القول الأول: أنه محذوف، وقيل في تقديره: (لتبين لكم حال فطبع عظيم). أو (لما ألهاكم التكاثر). - كما قدره ابن القيم^(١). ومثله قول البقاعي: " لما شغلكم التكاثر"^(٢).

القول الثاني: أنه مذكور، وهو «لترون الجحيم»، لكن على أن معنى الرؤية هنا الرؤية القلبية، أي: لترون الجحيم بقلوبكم. وقد رد ابن تيمية هذا القول بما يأتي:

١- " أن قوله : « ثُمَّ لَتَرَوْهَا » ، « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ » معطوف على ما قبله، فيكون داخلاً في حيزه، فلو كان الأول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك،

^(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٢.

^(٢) ابن القيم، عدة الصابرين، ص ١٥٦.

^(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥١٧.

- وهو باطل؛ لأن رؤيتها عين اليقين، والسؤال عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا علم اليقين .
- ٢- أن تفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب .
- ٣- لأن محصله أن يكون الشرط هو الجواب، فيصير المعنى - حينئذ - لو علمتم علم اليقين، لرأيتم بقلوبكم، وذلك هو العلم، فالمعنى : لو علمتم لعلمتم، وهذا لا يفيد. ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم، فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبه.
- ٤- كما أن هذا المعنى لو كان مفيداً، لم يكن مما يستحق القسم عليه، فإنه ليس بطائل.
- ٥- أن قوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ»، لم يذكر المعلوم، حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم، فإن أريد معلوم خاص، فلا دليل في الشرط عليه، حتى يصح الارتباط. وإن أريد المعلوم العام - وهو ما بعد الموت - فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها، وهذا فيه نظر ... " (١).
- القول الثالث: رأي بنت الشاطئ من أنه مذكور، وهو: «لترَوْنَ الجحيم»، والرؤية هنا رؤية حقيقية (٢).
- د - قوله تعالى: «علم اليقين»،

(١) أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة (ت ٧٢٨هـ)، التفسير الكبير، تحقيق

وتعليق: عبدالرحمن عميرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٧، ص ٣٦، ٣٧. بتصرف قليل.

(٢) بنت الشاطئ، التفسير البياني، ص ٢٠٨ وما بعدها.

وقد اختلف في معنى اليقين: فقليل: هو الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [٩٩ الحجر] ^(١). وقيل: هو البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك ^(٢).

وقيل: هو التحقق وإزالة الشك، وهو رأي جمهور المفسرين ^(١).

والذي يظهر هو القول الثالث، ويكون المركب الإضافي من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: علم يقين، وهو نوع من اللغة يدل على أكد درجات التأکید. وبهذا التأکید الأكيد تلتحم الآية مع سابقتها ليؤدين رسالة يقينية كبرى هي صدق النبوات وحقية الرسالات السماوية.

وإن هذا التنوع في التعبير القرآني، واستعمال الأساليب اللغوية المختلفة ليدل على عظم هذه القضية التي حشد لها القرآن الكريم جنوداً من الأدلة والبراهين لا قبل للمعاندين بالتشكيك بها، فضلاً عن ردها وإنكارها.

وبهذا ينتهي هذا المقصد الجليل، حيث بين الحق - عز وجل - صدق أنبيائه عليهم السلام أوضح بيان وأجله، مع ما حفّ هذا البيان من قرائن التهديد والوعيد للمنكرين أخبار نبوتهم كلها أو جلها، ولم يغفل مصير المصدقين المؤمنين

^(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٣٢، ص ٧٦.

^(٢) الطبري: وروي القولان عن قتادة. انظر: القرطبي (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: هشام البخاري، بيروت، دار عالم الكتب، ط ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج ٢٠، ص ١٧٣.

نظام عقد المعاني في سورة التكاثر : أ.د. شحادة احميدي العمري -و- د.خالد نواف أحمد الشوحة

بصدقهم، فلهم من حذف مفعول (تعلمون) مسكة من نصيب، فإذا كان اللاهون والمنكرون سيعلمون جزاءهم، فالمؤمنون المصدقون أولى بأن يعلموا ما يخفيه الله تعالى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يتذكرون، وعن الله عن طاعة الله يلتنون.

فانظر إلى تمام الإتقان في صنعة البيان، كيف قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى أبلغ وفاء، دون أن يحيف عليه قيد أنملة أو مثقال حبة من خردل، فسبحان قائله، وتعالى عن أن يُخرق إعجاز كلامه علواً كبيراً.



(¹) انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢٤، ص ٥٨١. الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٩٩. والشوكاني، فتح القدير، ج ٨، ص ٥٢.

المبحث الرابع

مآل الناس في الآخرة

رأينا كيف عرضت السورة في مقصدها الأول لحقيقة الموت، ثم كيف رت صدق الرسل بحجة بالغة. وما هي الآن تستأنف نتيجة حتمية يقتضيتها اق الآيات وسياقها، بل هي مقام من مقامات عدل الله تعالى، وموطن من اطن الحساب والثواب والعقاب، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فُسْدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [٢٨: ص].

نقول: جاء المقصد الثالث من مقاصد السورة ليبين مآل اللاهين عن عبادة ، - جل وعز -، ومآل الذاكرين، في كلام مختصر عداه جمانتان حسناوان في السورة الثمين، هما قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ .

جمع في حروفهما القليلة أساليب لغوية ومعنوية متنوعة مما تعرفه العربية بهز العواطف ويحرك العقول، ومن ذلك:

: استئناف المقصد بالقسم المحذوف المقدر الذي دل عليه جوابه الظاهر ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ، أي: والله لترون الجحيم.

إيثار لفظ الرؤية، والمراد منها هنا الرؤية البصرية لا القلبية، وهي أقوى مراتب العلم.

تصريح بذكر اسم من أسماء النار هو (الجحيم)، وفيه ما فيه من التخويف وإثارة الرعب والتهويل.

رابعاً: تكرار القسم مرة أخرى بقوله: (ثم)، ويفيد التراخي الرتبي للمبالغة في التعظيم، قال الزمخشري: " وكرّره معطوفاً بـ (ثم) تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل " (١).

خامساً: تكرير الرؤية مرة ثانية؛ للدلالة على تمام العلم وتيقنه.
سادساً: وصف الرؤية بأنها (عين اليقين)، وهي إضافة بيانية لمصدر محذوف، والتقدير: ثم لترونها رؤية عين اليقين. قال ابن عاشور: " وإضافة (عين) إلى (اليقين) بيانية، كإضافة (حق) إلى (اليقين) في قوله تعالى: ﴿ إن هذا لهُو حق اليقين ﴾ [٩٥: الواقعة]. وبهذا يكون في قوله تعالى: (عين اليقين) تأكيدان للرؤية بأنها يقين، وأن اليقين حقيقة " (٢).
وقال البقاعي عن هذا التركيب: " دلالة على المعاينة بغاية ما يكون من صفاء العلم لكونه لا ريبية فيه؛ فإن المشاهدة أعلى أنواع العلم " (٣).

سابعاً: تأكيد القسمين باللام والنون.

ثامناً : ليس المقصود من الرؤية هنا الدخول، فإن الرؤية وإن كانت حقيقية، إلا أنه لا يلزم منها الدخول، بل المراد مجرد الرؤية، وهي بحد ذاتها تهديد شديد.

ومع قولنا: إن الرؤية لا يلزم منها الدخول، إلا أن الكفار عندما يرون الجحيم يعرفون أنهم سيدخلونها؛ لأنهم تحققوا حينها من صدق أخبار الأنبياء التي كان من ضمنها تعذيب الكافرين وتنفيذ وعيد الله لهم. والقول في هذه الآية كالقول

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج٤ ، ص ٧٩٩ .

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠، ص ٥٢٣ بتصرف.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٥١٩.

في آية مريم: ﴿وَإِنْ مَنَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [٧١: مريم]، فلا يلزم من ورود الدخول.

قال ابن القيم: " وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب - تبارك وتعالى - أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم: مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم " (١).

وأما قول ابن عاشور: " والإخبار عن رؤيتهم الجحيم كناية عن الوقوع فيها، فإن الوقوع في الشيء يستلزم رؤيته فيكنى بالرؤية عن الحضور " (١). ففيه نظر كبير، وتوضيحه أن ابن عاشور استدل بما هو غير موجود في الآية أصلاً، فإننا وإن سلمنا له كون الوقوع في الشيء يستلزم رؤيته، فإننا ننفي كون الآية دالة على الوقوع، فإنها لم تتحدث إلا عن الرؤية.

والذين استدلوا بالآية على أن الخطاب فيها للكفار قالوا: الرؤية تستلزم الوقوع في النار. أما ابن عاشور فإنه عكس الدليل، واستدل بالمتنازع فيه، وهو الوقوع، وكان الأولى به أن يستدل بالدليل على المدلول لا العكس. كما أن الدليل يجب أن يكون إما أعم من المدلول أو مساوياً له - على الأقل - حتى يدل عليه. أما أن يكون أخص منه فهذا لا يفيد. والرؤية هنا أخص من الوقوع.

ولعل الأظهر في الآية أنها لا تدل على أكثر من الرؤية، وأن رؤية الشيء لا تستلزم الوقوع فيه لا حساً ولا عقلاً ولا شرعاً، فكم نرى من أشياء في حياتنا

(١) ابن القيم، عدة الصابرين، ص ١٦١.

الدنيا دون أن نقع فيها أو نلمسها أو نقرب منها. هذا حساً. أما عقلاً، فإنه ليس في قواعد العقل ترتب الدخول في الشيء على رؤيته. وأما شرعاً، فإنه قد وردت الأدلة الكثيرة على أن المؤمنين يرون النار وينظرون إلى أناس دخلوا النار كانوا يعرفونهم في الدنيا. ومن ذلك قوله تعالى في الذي ينظر إلى صديقه: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [٥٥: الصافات]. وقال في أهل الأعراف: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤٧: الأعراف]. وغيرها من الأدلة المتضافرة على أن رؤية الشيء لا تستلزم دخوله.



^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٢.

المبحث الخامس

السؤال عن النعيم

بعد ما بينت السورة الكريمة - على قصر آياتها وقلة كلماتها - هذه المقاصد الجليلة، وألمت بعناصرها، لم يبق إلا طَيِّبِ الصحيفة وإعلان الختام، فكيف يا ترى طويت هذه الصحيفة؟ وكيف أعلن ختامها؟

لنعد بذاكرتنا إلى المقدمة التي افتتحت بها السورة؛ لننظر كيف تتجاوب هذه الخاتمة مع تلك المقدمة، بل كيف تتعانقان أشد تعانق؛ ليلتحم منهما حد فاصل محكم يسور آياتها، ويفصلها عن غيرها لتكون سورة مستقلة لها شخصيتها المتميزة، ولها قوامها المعجز الأخاذ.

لقد حكى لنا الخاتمة أن الناس سيسألون عن النعيم يوم القيامة، والنعيم: لفظ شامل لكل ما يصح أن يطلق عليه مما يحتمله السياق ولا يخالفه سباق أو لاحق. أما المقدمة فإنها عرضت لقضية انتهاء الناس بالتكاثُر. وإذا نظرت إلى ما فسر به المفسرون كُلاً من النعيم وما انتهى به الناس، فإنك ستجده - على تنوعه - واحداً، فما تكاثُر به الناس وألهاهم عن ذكر الله وطاعته، لا يعدو أن يكون هو النعيم نفسه الذي سيسألون عنه يوم القيامة، فيا لله ما أروع هذا الالتئام والالتحام كيف يؤدي رسائل بليغة ومواعظ جليلة يتفكر فيها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولنواصل ذكر ما اشتملت عليه الخاتمة من نظام عقد المعاني، فنقول:

أولاً : عُطفت خاتمة السورة على ما سبقها بـ (ثم) وتفيد التراخي الرتبي، قال ابن عاشور: " من أجل أن الحساب على النعيم الذي هو نعمة من الله أشد عليهم " (١).

ثانياً : تكرير القسم في قوله تعالى: (لتسألن)، وتأكيده باللام والنون.

ثالثاً : المراد من (يومئذ)، فقيل: موقف الحساب. وقيل: إذا دخلوا النار، بدليل قوله تعالى: ﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ [٨: الملك]. والذي يظهر من معنى (يومئذ) أنه زمان القيامة العام، دون نظر إلى تحديد خاص، وأما (ثم) فهي للتراخي الرتبي لا الزمني، فالمراد سؤال الناس يوم القيامة عن النعيم، تقريراً لفضل الله تعالى عليهم.

رابعاً : معنى النعيم، وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره عشرة أقوال في معناه، منها: إرسال النبي محمد ﷺ ، ومنها: الأمن والصحة، ومنها: ملاذ المأكول والمشروب، ومنها: كل شيء من لذة الدنيا، وهكذا، ثم قال: "والصحيح أنه عام في كل نعيم، وعام في جميع الخلق" (٢). قلت: وما ذكره ابن الجوزي صحيح، ويدل عليه تصدير الكلمة باللام المفيدة لاستغراق الجنس.

خامساً: طوت الآية ذكر السائل، فقيل: هو الله تعالى، وقيل: هم الملائكة. والذي يظهر أن نسكت عما سكت عنه القرآن هنا، والفائدة من هذا السكوت:

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٤.

(٢) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) : زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ١٩٧٨م، ط ٤، ج ٩، ص ٢٢٠.

توجيه القلوب والأفئدة إلى السؤال نفسه، والاهتمام بجواب هذا السؤال والعمل له في الدنيا.

سادساً: اختلف المفسرون في المسؤولين يوم القيامة على قولين هما:

القول الأول: الكفار فقط، وقد ذكر هذا القول عن الحسن ومقاتل وعدد

من المفسرين ، وقد احتج له الواحدي ^(١) بما يأتي:

١- حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز

شعير ولحم وبسر ^(٢) قد ذنب وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا

من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما ذلك للكفار،

ثم قرأ: ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [١٧: سبأ] ^(٣).

٢- أن الظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين

وتهديد لهم.

٣- أن المعنى أيضاً يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم

عليهم، حيث أشركوا به، وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما

(١) نقل ذلك عنه ابن القيم في عدة الصابرين، ص ١٥٩ .

(٢) البسر : جمع البسرة وهي ثمر النخل قبل أن يرطب. قال الرازي: "والبسر أوله طلع، ثم خلال، ثم بلع ، ثم بسر، ثم رطب". الرازي، مختار الصحاح، ص ٥١.

(٣) ذكر القرطبي من أنه رواه أبو نصر القشيري (١٧٧/٢٠). كما ذكر السمرقندي في بحر العلوم أنه من رواية: صالح بن محمد عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ج ٤، ص ٤٣٤، وقد ذكر ابن القيم أنه لا يصح، ص ١٦٠.

أنعم به عليهم توبيخاً لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

القول الثاني: الخطاب غير خاص بالكفار، بل هو عام لكل من ألهاهم التكاثر. وقد انتصر لهذا القول ابن القيم رحمه الله، حيث قال: " ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بالهفاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك " ^(١). واستدل لرأيه بما يأتي:

١- حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿الْهَآكُمُ النَّكَآثُرُ﴾ ، قال: " يقول ابن آدم: مالي مالي - قال - وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت " ^(٢). قال ابن القيم: "وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً" ^(١).

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما في هذه

^(١) ابن القيم، عدة الصابرين، ص ١٥٩، ومرجع كل ما ذكرته عنه بعد هذا النقل إنما هو من الكتاب نفسه من صفحة (١٥٩ . ١٦٢). وقد رتبته وهذبتة بما يتناسق مع طبيعة البحث.

^(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: حدثنا قتيبة بن سعيد، (٢١١/٨)، برقم (٧٦٠٩).

الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما. فوما. فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته، قالت مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: وأين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعدق فيه بسر^(٢) وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا. فأخذ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والخلوبة. فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"^(٣). قال ابن القيم: " فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار "^(٤).

(١) ابن القيم ، عدة الصابرين، ص ١٥٩ .

(٢) البسر: تقدم. والعذق بالفتح: النخلة، وبالكسر: العرجون بما فيه من الشماريخ، ويجمع على عذاق. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، ص ١٦٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، (١١٦/٦)، برقم (٥٤٣٤).

(٤) ابن القيم ، عدة الصابرين، ص ١٦٠ .

٣- أن فهم العموم هو ظاهر اللفظ وفهم الصحابة رضي الله عنهم كما في حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه ، لما نزلت : «ثُمَّ لَنُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» ، قال الزبير: "يا رسول الله، فأبي النعيم نسئل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟ قال: أما انه سيكون" ^(١)، فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها، إنما هي للكفار. فالصحابه فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم القرآن أقرهم على فهم العموم.

أما ما ذكره الواحدي ففيه نظر من وجوه :

١- الحديث الذي الواحدي في المسألة لا يصح، قال ابن القيم: " وأما حديث ابي بكر رضي الله عنه الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديث لا يصح، والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه " ^(١).

٢- كون السورة كلها خطاب للمشركين فيه نظر كبير، فليس في السورة ما يدل على اختصاص الخطاب بهم، وقد بينت هذا أثناء السورة. وكيف يكون مختصاً بهم والواقع يشهد بالتهاء بعض المسلمين. قال ابن القيم: " فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة

^(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: سورة التكاثر، ج٥، ص٤٤٨، برقم (٣٣٥٦).

الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، ... ، فقوله: «أَلْهَاكُمُ النَّكَاتُ» خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله" (٢).

٣- وأما الوعيد المذكور فجوابه أنه لا يلزم من الرؤية الدخول في الجحيم، وقد تقدم.

وأزيد هنا شيئاً لم يذكره ابن القيم، وهو أن بعض المفسرين استدلوا على كون الخطاب للكفار فقط بأن الآية قررت دخول المخاطبين النار بدلالة الرؤية. وردُّ هذا بأمرين:

الأول : الرؤية لا تستلزم الدخول في النار.

الثاني: أن دخول النار غير مختص بالكفار يوم القيامة، فإنه قد دلت الأدلة الكثيرة على أن بعض المسلمين يدخلون النار لمعاصي ارتكبوها هي دون الشرك ثم يخرجون منها، ومنهم الجهنميون ومن ذلك:

● ما أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين" (٣).

(١) ابن القيم ، عدة الصابرين ، ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، (٢٠/٢٢٣)، برقم (٦١٩١).

● ما رواه مسلم مما هو أصرح في الدلالة على ما ذكرت، حيث روى بسنده عن يزيد الفقير أنه ذكر عن جابر رضي الله عنه . قال: " ثم نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه. قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك. قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها. قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم. قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس " ^(١).

قلت: بهذين الدليلين ودينك الأمرين يظهر لنا عدم دلالة آية الرؤية على أن الخطاب للكفار فقط. والله الهادي إلى سواء السبيل.

تلکم هي سورة التكاثر، وذاكم هو عقد معانيها الفريد، فانظر - رحمك الله - كيف انتظم هذا العقد الثمين من جمادات ثمان، رُبطت برباط الإعجاز وإحكام التناسق والتناسب، ثم انظر كيف ترأبت معانيها وتكاتفت، لتقرر حقائق إيمانية كبرى، لو أراد غير الخالق أن يقررها لاحتاج إلى فصول وكتب، يحرك العاطفة فيقصر في إقناع العقل، وإن أفهم الخاصة لم يصل كلامه إلى العامة، وإن قصد إلى توفية المعنى أسام السامع بكثرة اللفظ، وهكذا دواليك، يبرع في شيء على حساب الآخر. وقبل أن أنتهي بك إلى خاتمة البحث أذكر لك مجملاً للأساليب اللغوية التي استعملت في سورة التكاثر.



^(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١/١٢٣)، برقم (٤٩٣).

المبحث السادس

الأساليب اللغوية المستعملة في سورة التكاثر

أولاً : التقديم والتأخير: حيث قدم المفعول (الضمير المتصل في ألهاكم) على الفاعل (التكاثر). والذي يظهر من حكمة هذا التقديم زيادة النعي على الملتهين حيث قدم ذكرهم، فجاء التركيز على من وقعت منه المعصية. ثانياً : الحذف (شجاعة العربية)، وتمثل فيما يأتي:

١- حذف المُلهى عنه، وهو كل ما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى.
٢- حذف مفعول (تعلمون) في ثلاثة مواضع، وقد ذكرت الخلاف في تقديره في المواضع الثلاثة من البحث ، وفيه فوائد ثلاث:
الأولى: زيادة التهديد والوعيد، لأن حذف المفعول يجعل النفس تذهب في تقديره كل مذهب.

الثانية : استيعاب أكبر قدر ممكن من المعنى في أوجز لفظ (معنى كثير في لفظ قليل)، ولذلك سماه ابن جنبي: شجاعة العربية، ويدل على ذلك أن الإنسان لن يقتصر علمه على شيء واحد أو شيئين فقط، بل سيحصل له العلم بأشياء كثيرة مختلفة، فلو ذكر المفعول لاقتصر المعنى عليه ولم يتعد غيره.

الثالثة : بيان الترابط المعنوي بين آيات القرآن الكريم بعضها مع بعض، وبين آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ، حيث ذكر في

بعضها ما لم يذكر في الآخر، وما حذف منها استطعنا أن نأخذه من آيات أو أحاديث أخرى.

٣. حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

٤. حذف فعل القسم من قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

وفيه ما سبق من الفوائد في النقطة السابقة. ويزداد هذا الموضوع بياناً لترابط القرآن الكريم حيث حذف جواب الشرط هنا اعتماداً على ما يفهم من جملة القسم، والعكس صحيح.

ثالثاً : أسلوب القسم : وقد استعمل في ثلاث آيات، هي قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ . ويدل ذلك على أمرين ، أولهما: عظم الموضوع المتكلم عنه مما ادعى إقسام الله تعالى عليه، والله عز وجل لا يقسم إلا على الأمور العظيمة. وثانيهما: كون المخاطبين إما منكرين لمضمون الخطاب، وإما منزليين - لما يصدر عنهم من أفعال - منزلة المنكرين للخطاب.

رابعاً : الردع والزجر بـ (كلا) ثلاث مرات. والحكمة من ذلك بيان الحالة التي وصل إليها الناس من البعد عن الله - سبحانه وتعالى -، مما ألجأ إلى تكرار ردعهم وزجرهم عن ذلك. وفيه درس للدعاة أن يكرروا زجر الناس وردعهم في كل حين يرونهم يبتعدون فيه عن ذكر الله وطاعته، وبهذا يجمع الداعية بين أسلوب الترهيب والترغيب، شريطة الأخذ بالحكمة والنظر إلى المصلحة.

خامساً: لم يستعمل من حروف العطف إلا (ثم)، والحكمة من ذلك بيان تصعيد التهديد والمخالفة بين المخبر عنه من حيث درجتها، أما لو استعمل الواو لما أفادت إلا مطلق الجمع. وهذا درس للدعاة أن يعطوا الأمور حقها، فلا يعظموا في عيون الناس إلا ما كان عظيماً.

سادساً: السورة من أولها إلى آخرها جاءت بصيغة الجمع (ألهاكم، زرتم، تعلمون، لترون، لترونها، لتسألن). والحكمة من ذلك أن السورة تتحدث عن قضية عامة شاملة لكل الناس: مسلمهم وكافرهم، فناسب أن يكون الخطاب بصيغة الجمع، بل إن ما ذكر من غير الأفعال جاء بصيغة الجمع ك (الْمَقَابِرِ) التي هي جمع مقبرة والمقبرة مكان مجتمع القبور، أو ما يقتضي الجمع ك (التكاثر)، وهو مصدر يحمل في أصل وضعه معنى الكثرة والجمع.

سابعاً : تكرير فعل الرؤية مرتين.

ثامناً: إضافة الموصوف إلى الصفة في تعبيرين هما: (علم اليقين) و (عين اليقين). والحكمة من النقطتين السابعة والثامنة إثبات صدق الأنبياء، وتقرير حقيقة الساعة بأكد الأساليب وأدلها على الصدق، بما لا يدع مجالاً لأحد في أن يشكك فيها، فضلاً عن أن ينكرها أو يردّها.

تاسعاً: أسلوب الاحتباك : في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ، وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ، وهو أسلوب من أساليب الإيجاز.

قال الجرجاني : " الاحتباك هو أن يجتمع في الكلام متقابلان و يحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً، أي: علفتها تبناً، وسقيتها ماءً بارداً " (١). و قال أبو البقاء: "الاحتباك: هو من الحَبَك الذي معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب. والاحتباك من أطف أنواع البديع وأبدعها، وقد يسمى حذف المقابل، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول" (٢).

عاشراً : العدول عن المبني للمعلوم إلى ما لم يسم فاعله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَمْ لَنْسَأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، والحكمة من ذلك التركيز على السؤال نفسه ، وتنبيه الإنسان إلى أن يعد للسؤال جواباً، ولا يضر تحديد السائل آنذاك فكل شيء بأمر الله سبحانه وتعالى.



(١) الجرجاني، التعريفات، بيروت دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ط١، ص٢٥.

(٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري،

بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٦٧ .

خاتمة البحث

بعد هذا التطواف بين آيات هذه السورة أصل إلى الخاتمة ؛ لأجل النتائج

الآتية :-

- ١- بيان إعجاز القرآن الكريم في السور القصيرة بما اشتملت عليه من مفردات الإعجاز البياني.
- ٢- خطاب السورة لعموم الناس: مؤمنهم وكافرهم، ولم تقتصر على الكفار فقط، كما ورد عن جمهور المفسرين.
- ٣- موضوع السورة هو نهْيُ الناس عن التكاثر الملهي، وبيان سريان هذا الموضوع في آيات السورة كلها، ومجمل ذلك أن المقدمة بينت حقيقة الناس المشاهدة وهي التهاؤهم بالتكاثر، ثم جاءت المقاصد الثلاثة ناهية لهم عن ذلك بتذكيرهم بالموت، ثم بتقرير صدق الأنبياء الذين حذروهم عاقبة الالتهاؤ، ثم ببيان مال اللاهين والمتذكرين، ثم ختمت بسؤالهم عن النعيم الذي انقلب نقمة على من انتهى به عن طاعة الله.
- ٤- احتواء السورة - على قلة كلماتها - دروساً عظيمة تنير طريق الدعاة في وعظ الناس والتعامل مع واقعهم.
- ٥- اشتمال السورة على مجموعة من الأساليب اللغوية التي تلفت أنظار الناس وتجلب انتباههم بما يتناسب مع عظم القضية، كالحذف والتقديم والتأخير والاحتباك ونحوها.
- ٦- تغليب استعمال أسلوب التأكيد في خطابات السورة بمفرداته: التكرار والقسم ونحوهما؛ بياناً لحال الناس، فهم بين منكر أو مُنرَّل منزلة.

التوصيات :

- العمل على تدشين دراسة موسوعية متكاملة؛ لدراسة الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم كلها.
- النظر في مقالات الكتاب الذين يشككون في ترابط أجزاء القرآن الكريم، وتناسب آياته، ومعرفة أنماط شبههم، والرد عليها.
- الإفادة من الدراسات اللغوية والبلاغية والبيانية، وإبراز العلاقة الوثيقة بينها وبين قضية التناسب البياني في القرآن الكريم.
- تعميق الدراسات التي تخدم قضية الإعجاز القرآني، والربط بينها وبين قضايا التفسير وعلوم القرآن الكريم.
- توجيه طلبة الدراسات العليا إلى البحث والدراسة في مسائل التفسير الموضوعي بشتى أقسامه وصوره.

